

هل يُعَبِّدُ الإخوان "الجماعة" من دون الله والوطن؟

د. سعد الدين إبراهيم

بمناسبة ما أثير مؤخراً من جدل حول استنثار الإخوان بأغلبية مقاعد مجلس الشعب والشورى، ثم قيام الجماعة باختيار أغلبية أعضاء الجمعية التأسيسية التي ستضع دستوراً للبلاد، من نفس أعضائها، تذكرت حديثين طويلين مع من يعرفون جماعة الإخوان جيداً. وهما بمثابة شهادتان تفسران ما حدث، وما يمكن أن يحدث من سلوك سياسي لحزب "الحرية والعدالة"، الناطق باسم جماعة الإخوان المسلمين.

وفحوى التفسير هو أن الجماعة تستبطن "نرجسية" تجعلها، لا فقط تعتبر نفسها الأحق بكل شيء في الدنيا والآخرة، لدرجة عبادة "ذاتها" من دون الله والوطن. ولولا معرفتي الوثيقة بأصحاب الشهادتين، لشككت في مصداقيتهما حينما سمعت منهم هذا التأكيد. كانت الشهادة الأولى من المفكر الإسلامي الكبير جمال البناء، شقيق الراحل حسن البناء، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين. وكانت المناسبة منذ حوالي رُبع قرن حينما دعوت الرجل لعضوية مجلس أمناء مركز ابن خلدون. فقد كان هناك حرص من العاملين في المركز على أن يُمثل مجلس الأمناء كل ألوان الطيف الفكري والسياسي - من الفكر الروحي إلى الفكر المادي، ومن أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

وحينما عبّرت عن هذا الخاطر للأستاذ جمال البناء، بادرني بأنه "إسلامي"، ولكنه غير "أخواني". ولما سألت عن سبب عزوفه عن الانضمام للإخوان المسلمين، وهو الذي يُحب أخاه الأكبر، ويُجله إجلالاً عظيماً؟ بادرني الرجل بعبارة أخرى، أشبه بما قاله "بروتس"، عضو مجلس شيوخ روما، وكان هو الأقرب لقيصر: نعم، أحبك يا عزيزي قيصر، ولكني أحب روما أكثر. إذ قال جمال البناء، نعم، كنت أحب شقيقي الأكبر كثيراً، فقد كان أكثر من شقيق.. لقد كان مُعلماً، وأباً. وكانت أحد القيم التي غرسها فينا هي قيمة "الحرية"، كمصدر لكل القيم والمبادئ الأخرى.

ثم أردف جمال البناء، بأنه اكتشف مُبكراً أن "السمع والطاعة"، هي المبدأ الحاكم في جماعة الإخوان المسلمين، وأن ذلك يتعارض مع قيمة "الحرية"، التي جعلها الله عز وجل هي أساس الإيمان به - "فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر". ثم راقب الرجل عن كثب كيف تُدار شؤون الجماعة، وكيف يتخذ القرار، وكيف يتم تنفيذه. وخلص إلى أن الجماعة لا تختلف تنظيمياً عن "الحزب الشيوعي"، كما تصوره وطبقه "نيقولا لينين"، رئيس أول وزراء في روسيا البلشفية (1918-1924). ولهذا السبب لم ينضم جمال البناء إلى الجماعة، التي أسسها شقيقه!

أما الشهادة الثانية، فقد جاءت من رفاق السجن، من الإسلاميين. وفي السجن، كما في الحروب، وكما في سنوات الدراسة، تنشأ رابطة وثيقة برفاق السجن، حتى لو جاءوا من خلفيات فكرية وطبقية مختلفة تماماً، وفي السجن بعد فترة التكدير والتعذيب والامتهان الأولى، أو ربما بسببها، تنشأ بين الضحايا ألفة، تكشف عن معادن البشر، وتتحول هذه الألفة تدريجياً إلى "غروة وثقى". لذلك رغم "علمانيتي"، توثقت علاقتي بعدديد من الإسلاميين - تكفيريين، وجهاديين، وإخوان مسلمين. وظل هؤلاء جميعاً على علاقات ودودة معي، على مر السنوات بعد الخروج من السجن.

وجاء عدد منهم لزيارتي في آخر عيد أضحى. وضمن ما تحدثنا فيه رغبة الجهاديين منهم الانخراط في الحياة العامة، والمشاركة السياسية النشطة.

ولما اقترحت عليهم الانضمام إلى حزب "الحرية والعدالة" التابع للإخوان المسلمين، ردوا جميعاً بنفس العبارة: "أعوز بالله". وأبدت دهشتي قائلاً، أليس هذا الحزب هو الأقرب إلى مُعتقداتهم وتوجهاتهم؟

ردوا عليّ، بشيء قريب جداً مما كان قد قاله لي الأستاذ جمال البناء منذ عدة سنوات، مع تفصيلات أخرى مريرة، من واقع مُعاملاتهم المُباشرة مع الإخوان.

من ذلك أن الإخوان، رغم أن أحد شعاراتهم التي يتغنون بها، هو أن "الجهاد في سبيل الله أعلى أمانينا" إلا أنهم منذ حرب فلسطين الأولى (1948/1949) لم يُشاركوا في أي "جهاد" - لا في أفغانستان، ولا في العراق، ولا في البوسنة، ولا في ألبانيا - رغم أن هذه البلدان الإسلامية شهدت صراعات مُمتدة لسنوات طويلة.

ومن ذلك أنهم رغم ثرواتهم الطائلة، لم يقوموا أبداً بنجدة أي جماعة إسلامية في محنة أو ضيق. وتحذوني في أن أذكر حالة واحدة فعلوا منها ذلك في داخل مصر أو خارجها!

وخلاصة ما قاله الجهاديون، هو أن ولاء الجماعة هو للجماعة، وللجماعة فقط. أي أنه قد يكون مفهوماً أن "الأقربون أولى بالمعروف"، ولكنه في حالة الجماعة هم فقط المستحقون للمعروف، دون غيرهم.

وسألني أحد رفاق السجن من الإسلاميين: هل شاركت أي عضو من الإخوان المسلمين حتى في إفطار رمضان، وقد مر عليك ثلاث رمضانات؟ وللأسف كان السائل على حق. أي أنه رغم معرفتي بعدد كبير من الإخوان في السجن، إلا أنهم لم يتبادلوا العطاء، لا معي ولا مع غيري من رفاق السجن من غير الإخوان.

وكان الأخطر في حديث "الجهاديين"، هو أن الإخوان لا يكتفون أبداً حتى بنصيب الأسد، ولكنهم يحرصون على الاستحواذ الكامل، كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. لذلك، فالأمر لن يتوقف على ما فعلوه في اختيار أعضاء الجمعية التأسيسية لصياغة الدستور. إن ذلك مجرد "مؤشر" مبكر على نزعتهم الاستحواذية، والتي ستمتد إلى الاقتصاد والثقافة. فكل مفاتيح الاستيراد والتصدير، والتوزيع، والعطاءات، والمقاولات ستكون في أيديهم. ولن يتركوا لغيرهم إلا الفتات.

فإذا كان كلا، أو حتى بعضاً من ذلك صحيحاً، فليس أمام شعبنا المصري، من غير الإخوان، إلا أحد استجابتين: الاستسلام لقضاء الله والإخوان، أو الاستعداد لثورة ثانية، لتحرير مصر من جبروت الإخوان المسلمين. وعلى الله قصد السبيل